الفصل الأول

مع النصوص المقدسة

كان التوحيد الإسلامي دائماً إلى جانب الاستمرارية مع التاريخ المقدس للنبوة، فمنذ البداية، كان اللّٰه الواحد الأحد يرسل إلى البشر أنبياء ورسلاً يوكل إليهم الرسالة، التذكرة به، وأوامره، وحبه، وأمله. ومن آدم، أول نبي، إلى محمد ﷺ خاتم الرسل، يعترف الإسلام ويتماهى مع سلسلة النبوة كلها، من أشهر الرسل (إبراهيم ونوح وموسى وعيسى... إلخ) إلى الأقل شهرة، فضلاً عن آخرين لا نعرف شيئاً عنهم، لقد كان الواحد الأحد دائماً معنا -نحن خلقه- منذ بداياتنا حتى نهايتنا، وهذا هو جوهر التوحيد (وحدانية اللّٰه) وما جاء في القرآن من إشارة إلى مصير البشر ومصير كل فرد: ﴿إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيۡهِ رَٰجِعُونَ﴾[1].

نسب ومكان

مما لا شك فيه أن نسب النبي ﷺ إلى إبراهيم عليه السلام هو النسب الأكثر أهمية. وثمة أسباب كثيرة لذلك، لكن القرآن، يشير منذ البداية إلى هذه الصلة الخاصة بإبراهيم عليه السلام عبر التعبير الملحّ والمتواصل عن التوحيد، أي الإيمان بإله واحد، وإلى التزام الوعي البشري بالمشروع الإلهي، وإلى

obeikandl.com

إمكان وصول القلب إلى معرفة الله وسلامه من خلال بذل النفس، وهذا هو معنى كلمة «الإسلام»، التي كثيراً ما تترجم ترجمة سريعة بمجرد فكرة التسليم ولكنها تتضمن أيضاً المعنى المزدوج لـ «السلام» و«بذل النفس الصادق». فالمسلم، إذاً، هو كائن أراد، عبر التاريخ ـ وحتى قبل الوحي الأخير ـ بلوغ السلام الإلهي عبر بذل نفسه الصادق لله، بهذا المعنى، كان إبراهيم التعبير العميق والمثالي عن الإنسان المسلم:

﴿هُوَ ٱجْتَبَىٰكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِى ٱلدِّينِ مِنْ حَرَجٍ ۚ مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَٰهِيمَ ۚ هُوَ سَمَّىٰكُمُ ٱلْمُسْلِمِينَ مِن قَبْلُ وَفِى هَٰذَا لِيَكُونَ ٱلرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ﴾[2].

إلى جانب هذا الإقرار بالواحد الأحد، يبرز شخص إبراهيم عليه السلام على الأخص بين سلسلة الأنبياء وصولاً إلى رسول الإسلام ﷺ، لعدة أسباب أخرى، يحكي سفر التكوين -مثل القرآن- قصة أَمَةَ إبراهيم هاجر، التي ولدت طفله الأول، إسماعيل، في شيخوخته[3]، وقد طلبت سارة زوجة إبراهيم عليه السلام الأولى -التي ولدت بدورها إسحق- من زوجها إبعاد أمته وطفلها.

فأخذ إبراهيم عليه السلام هاجر وإسماعيل بعيداً إلى واد في شبه الجزيرة العربية يسمى بكة، وهي ما يعرف اليوم باسم «مكة». وتسرد القصة الإسلامية، مثل سفر التكوين، التساؤلات والمعاناة ودعاء إبراهيم عليه السلام وهاجر، اللذين أرغما على معاناة النفي والانفصال، وفي كل من النصوص الإسلامية واليهودية ـ المسيحية، نجد سرداً لهذا الاختيار بيقين وراحة

حميمة من أن الأبوين والطفل إنما كانوا ينفذون أمر الله الذي سيحمي ويبارك ذرية إبراهيم عليه السلام من هاجر، يجيب الله، في سفر التكوين، دعوات إبراهيم عليه السلام بشأن ابنه:

«أما بشأن إسماعيل، لقد سمعتك؛ إني سأباركه.... وسأجعله أمة عظيمة»[4].

وبعد ذلك، عندما كانت هاجر في حالة من العجز والضعف دون طعام وماء:

«وسمع الله صوت الصبي، فنادى ملاك الله هاجر من السماء وقال لها: «ما لك يا هاجر؟ لا تخافي. سمع الله صوت الصبي حيث هو. قومي احملي الصبي وخذي بيده، فسأجعله أمة عظيمة»[5].

أما القرآن فإنه يخبرنا بدعوة إبراهيم عليه السلام:

﴿رَّبَّنَآ إِنِّيٓ أَسۡكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيۡرِ ذِي زَرۡعٍ عِندَ بَيۡتِكَ ٱلۡمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ فَٱجۡعَلۡ أَفۡـِٔدَةٗ مِّنَ ٱلنَّاسِ تَهۡوِيٓ إِلَيۡهِمۡ وَٱرۡزُقۡهُم مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمۡ يَشۡكُرُونَ ٣٧ رَبَّنَآ إِنَّكَ تَعۡلَمُ مَا نُخۡفِي وَمَا نُعۡلِنُۗ وَمَا يَخۡفَىٰ عَلَى ٱللَّهِ مِن شَيۡءٖ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَا فِي ٱلسَّمَآءِ ٣٨ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ ٱلَّذِي وَهَبَ لِي عَلَى ٱلۡكِبَرِ إِسۡمَٰعِيلَ وَإِسۡحَٰقَۚ إِنَّ رَبِّي لَسَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ ٣٩﴾[6].

فعلى صعيد واقعي صرف، يعد محمد صلى الله عليه وسلم من ذرية إسماعيل عليه السلام ولذا فهو جزء من تلك «الأمة العظيمة» التي وردت في الكتاب المقدس. لذا،

obeikandl.com

فإن إبراهيم عليه السلام «أبوه» بالمعنى الأساسي، وتقر النصوص الإسلامية بأن بركات دعاء هذا الأب تمتد لتشمل سليله آخر النبيين فضلاً عن المكان الذي ترك فيه هاجر وإسماعيل، حيث سيتعرض، بعد بضع سنين، إلى الاختبار المفزع للتضحية بابنه، وحيث سيقوم في خاتمة المطاف برفع قواعد البيت الحرام (الكعبة)، يسرد القرآن علينا ذلك على النحو الآتي:

﴿ ۞ وَإِذِ ٱبۡتَلَىٰٓ إِبۡرَٰهِـۧمَ رَبُّهُۥ بِكَلِمَٰتٖ فَأَتَمَّهُنَّۖ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامٗاۖ قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِيۖ قَالَ لَا يَنَالُ عَهۡدِي ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٢٤﴾ وَإِذۡ جَعَلۡنَا ٱلۡبَيۡتَ مَثَابَةٗ لِّلنَّاسِ وَأَمۡنٗا وَٱتَّخِذُواْ مِن مَّقَامِ إِبۡرَٰهِـۧمَ مُصَلّٗىۖ وَعَهِدۡنَآ إِلَىٰٓ إِبۡرَٰهِـۧمَ وَإِسۡمَٰعِيلَ أَن طَهِّرَا بَيۡتِيَ لِلطَّآئِفِينَ وَٱلۡعَٰكِفِينَ وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ ﴿١٢٥﴾ وَإِذۡ قَالَ إِبۡرَٰهِـۧمُ رَبِّ ٱجۡعَلۡ هَٰذَا بَلَدًا ءَامِنٗا وَٱرۡزُقۡ أَهۡلَهُۥ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ مَنۡ ءَامَنَ مِنۡهُم بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِۚ قَالَ وَمَن كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُۥ قَلِيلٗا ثُمَّ أَضۡطَرُّهُۥٓ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلنَّارِۖ وَبِئۡسَ ٱلۡمَصِيرُ ﴿١٢٦﴾ ﴾(7).

هـذا ما تنطوي عليه التعاليم الإسلامية: يوجد إله وسلسلة من الأنبياء، يحتل إبراهيم عليه السلام بينهم مركز الصدارة، ويمثل الأب الأصلي للمسلمين، وهوأب سلالة إسماعيل عليه السلام وصولاً إلى محمد صلى الله عليه وسلم. وقد أسبغ إبراهيم وإسماعيل طابع القدسية على هذا المكان في بكة (مكة) عبر إقامة بيت الله بيديهما. وفي هذا المكان على وجه التحديد ولد آخر الرسل الذي بعثه الله إلى البشرية: محمد بن عبد الله صلى الله عليه وسلم، الذي حمل الرسالة التي تذكر الناس بالواحد الأحد وبالأنبياء وبالبيت الحرام. إله ومكان ونبي.

openkafa.com

اختبار الإيمان: الشك والثقة

هذه الحقائق البسيطة وحدها تبين الصلة التي تربط حياة محمد ﷺ بحياة إبراهيم عليه السلام. على أن السلالة الروحية هي التي تكشف بشكل أوضح أيضاً الطابع الاستثنائي لهذه الصلة. إن تجربة إبراهيم عليه السلام برمتها تظهر البعد الأساسي للإيمان بالواحد الأحد. فقد كان يتعين على إبراهيم عليه السلام -الذي كان قد أصبح متقدماً جداً في السن والذي رزقه الله حديثاً طفلاً- المرور باختبار الانفصال والهجران، الأمر الذي سيوصل هاجر وطفلهما إسماعيل، إلى حافة الموت، إن إيمانه هو الثقة بالله: فهو يطيع أمر الله ـ مثلما أطاعته هاجر ـ ويستجيب له رغم معاناته، ولا يتوقف عن الدعاء إلى الله والتوكل عليه، وقد سألت هاجر إبراهيم عليه السلام عن أسباب ذلك السلوك وعندما علمت أنه أمر من الله استسلمت له طائعة، فقد سألت ثم صدقت، ثم قبلت، وبهذا رسمت خطوات «القبول الإيجابي» لإرادة الله: تسأل بعقلها وتفهم بذكائها وتستسلم بقلبها، ومن خلال هذه التجارب وبعد أن تجاوز إبراهيم عليه السلام حزنه البشري، وفي الواقع من خلال هذا الطابع ذاته لذلك الحزن، أقام إبراهيم عليه السلام علاقة مع الله تستند إلى الإخلاص والمصالحة والسلام والثقة، كان الله يجربه لكنه كان يكلمه دائماً ويلهمه ويفرش طريقه بالعلامات التي تبعث الهدوء والطمأنينة في نفسه.

بعد بضع سنين من هذا الهجران في الصحراء، تعرض إبراهيم عليه السلام إلى اختبار آخر: حيث أمره الله بأن يذبح ابنه الأول، إسماعيل[8]. وإليكم القصة كما وردت في القرآن:

Obeikandi.com

﴿ فَبَشَّرْنَٰهُ بِغُلَٰمٍ حَلِيمٍ ﴿١٠١﴾ فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ ٱلسَّعْىَ قَالَ يَٰبُنَىَّ إِنِّىٓ
أَرَىٰ فِى ٱلْمَنَامِ أَنِّىٓ أَذْبَحُكَ فَٱنظُرْ مَاذَا تَرَىٰ ۚ قَالَ يَٰٓأَبَتِ ٱفْعَلْ مَا
تُؤْمَرُ ۖ سَتَجِدُنِىٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٠٢﴾ فَلَمَّآ أَسْلَمَا وَتَلَّهُۥ لِلْجَبِينِ
﴿١٠٣﴾ وَنَٰدَيْنَٰهُ أَن يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ ﴿١٠٤﴾ قَدْ صَدَّقْتَ ٱلرُّءْيَآ ۚ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى
ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٠٥﴾ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْبَلَٰٓؤُا۟ ٱلْمُبِينُ ﴿١٠٦﴾ وَفَدَيْنَٰهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ
﴿١٠٧﴾ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِى ٱلْءَاخِرِينَ ﴿١٠٨﴾ سَلَٰمٌ عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ ﴿١٠٩﴾ ﴾ (9).

كان اختبـاراً مروعاً: فمن أجل حـب إبراهيم عليه السلام لربه وثقته به كان عليـه أن يضحي بابنه، رغم مشاعر المحبة الأبوية، فاختبار الإيمان يتجلى هنا في هـذا الصراع بين حبين ـ فقد أطلـع إبراهيم عليه السلام إسماعيل على ما كان مطلوباً منه وكان ابنه هو موضوع التضحية وكانت كلماته المطمئنة لأبيـه مثل علامة تأكيـد: ﴿يَا أَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَـرُ سَتَجِدُنِي إن شَاءَ اللَّهُ ابِرينَ﴾. وكمـا كانت عليه الحال قبل بضـع سنوات مع هاجر، فقد وجد إبراهيم عليه السلام في الآخرين علامات تمكنه من مواجهة الاختبار، تلـك العلامات التي تعبر عن وجود اليـد الإلهية في قلب الاختبار، كان لها دور أساسـي في تجربة الإيمان وشكلت نمـط كون المرء مع نفسه ومع اللّه. فعندما يشاء اللّه تعريض رسوله لاختبار مروع ويقرن في الوقت نفسه ذلك الاختبـار بعلامات عن وجوده ودعمه (كلمـات التثبيت من زوجته أو ولده، رؤيا، حلـم، إلهام... إلخ)، فإنه يـؤدب إبراهيم عليه السلام في مجال الإيمان: فإبراهيـم عليه السلام يشك في مقدرته وقوته وإيمانـه، لكن العلامات تحول في الوقـت نفسه دون شكه باللّه، وهذا يعلـم إبراهيم عليه السلام التواضع ومعرفة اللّه. وعندمـا كان إبراهيـم عليه السلام يتعرض إلى الشك العميـق في نفسه،

obeikandi.com

وإيمانـه وصدق مـا يسـمعـه ويفهمه، تمكنـه تأكيدات هاجـر وإسماعيل (اللذيـن يحبهما لكنه يضحي بهمـا في سـبيل المحبـة الإلهية) بألا يشك بالله وبوجـوده وإحسـانه. وهكذا فإن الشك بالذات يترافق مع ثقة عميقة بالله.

إن اختبـارات الإيمان في واقع الأمر لم تكـن أبداً مأساوية في الأحداث الإسلاميـة، وبهـذا المعنى، فإن قصـة إبراهيم عليه السلام الـواردة في القرآن تختلـف من حيـث الأساس عن قصـة العهد القـديم عندما يتعلـق الأمر بمسألة التضحية. ينص سفر التكوين على ما يأتي:

> وبعـد هـذه الأحـداث امتحـن الله إبراهيـم، فقـا لـه: «يا إبراهيـم!» قـال: «نعـم، ها أنا». قـال: «خـذ إسحاق ابنك وحيـدك الـذي تحبـه واذهـب إلى أرض موريـة، وهناك أصعـده محرقـة على جبـل أدلك عليـه»... وأخـذ إبراهيم حطـب المحرقـة، ووضعه على ظهـر إسحاق ابنـه، وأمسك بيـده النار والسكين، وسارا كلاهما معاً. فقال إسحق لأبيه: «يـا أبـي!» قـال: «نعم يا بنـي» قـال «هنا النـار والحطب، فأيـن الخـروف للمحرقـة؟» فأجـاب إبراهيـم: «الله يدبر لـه الخـروف للمحرقة يا بنـي. وسـارا كلاهما معـاً»[10].

يتعين على إبراهيم عليه السلام التضحية بابنه وهنا نجد أنه يخوض هذا الاختبـار في عزلة مطلقة، فرد على سؤال ابنـه المباشر: «أين الخروف للمحرقة؟» فيجيب إبراهيم مواربأ، فهو وحده يجيب دعوة الله، قد يبدو

obeikandi.com

هذا الاختلاف بين الروايتين طفيفاً، إلا أنه ينطوي على نتائج أساسية تتعلق بصلب النظرة إلى الإيمان، إلى اختبار الإيمان، وإلى علاقة البشر بالله.

تجربة مأساوية

هذه العزلة المأساوية للإنسان في مواجهة ما هو إلهي تكمن وراء تاريخ الفكر الغربي من المأساة اليونانية (حيث يواجه بروميثيوس الثائر آلهة أوليمبيا) إلى التفسيرات الوجودية والمسيحية الحديثة كما تتجلى في أعمال سوربن كيركغارد[11]. إن تكرار ظهور موضوع الاختبار المأساوي للإيمان المنعزل في لاهوت الغرب وفلسفته قد ربط هذا التفكير بمسائل الشك والتمرد والشعور بالذنب والغفران وبالتالي فإنه قد شكل بالطبع الخطاب المتصل بالإيمان والاختبارات والأخطاء[12].

على أنه يجب توخي الحذر من المقارنات الظاهرية، فصحيح أن قصص الأنبياء، لا سيما قصة إبراهيم عليه السلام، تروى بطريقة متماثلة على ما يبدو في النصوص اليهودية والمسيحية والإسلامية، إلا أن دراسة أكثر دقة تبين أن الروايات مختلفة ولا تروي دائماً ذات الوقائع ولا تنطوي على ذات الدروس، لذا، فإنه يتعين على من يدخل إلى عالم الإسلام ويحاول مواجهة وفهم المقدسات والتعاليم الإسلامية أن يبذل الجهد الفكري والبيداغوجي الذي يقترن بعملية الطرح جانباً ـ طيلة مدة هذه المواجهة ـ للصلات التي قد يكون أقامها بين تجربة الإيمان والاختبار والخطأ والبعد المأساوي للوجود.

يروي الوحي القرآني قصص الأنبياء، ويعمل من خلال هذا السرد على أن يكـون في قلب المسلم علاقـة بالمتعالي الذي يصر دائمـاً على استدامة الاتصـال عبر العلامات والإلهامات بل حتـى الوجود الحميم ذاته للواحد الأحـد الذي تعبر عنه هذه الآية القرآنيـة تعبيراً في غاية الجمال: ﴿ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ ۖ أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِ ﴾(13). لقد تعرّض جميـع الرسل، مثل إبراهيم عليه السلام ومحمـد ﷺ، لاختبار الإيمان، وكانوا دائمـاً يجدون -بالطريقة نفسهـا- الحماية من أنفسهـم وشكوكهم بالله وعلاماتـه وكلمته. أما معاناتهم فلا تعني أنهم ارتكبوا أخطاء، ولا تكشف عن أي بعد مأساوي للوجود؛ إنها، بمزيد من البساطة، تعلم التواضع الذي يفهم بأنه مرحلة لازمة في تجربة الإيمان.

وبمـا أن حياة محمـد ﷺ كانت تعبيراً عن الجوهـر الظاهر والمشاهد لرسالـة الإسـلام، فإن التوصـل إلى معرفـة النبي هو وسيلـة ذات امتياز للانضمام إلى عالم الإسلام الروحي، فمنذ ولادته حتى وفاته، كانت تجربة الرسـول ﷺ ـ الخالية مـن أي بعد مأساوي بشري ـ تقـرن دعوة الإيمان والاختبار لدى الناس بالتواضع والسعي إلى السلام مع الواحد الأحد.